الابعاد النفسية والتربوية لمفهوم الدين في ضوء السياسة الشرعية

م.م. بهدين صبري نايف شمدين
bahdinnaief77@gmail.com
مركز وعي للأستشارات وبناء القدرات – اربيل

الملخص

بعد هذا العرض التاريخي والتحليلي لمفهوم "الدين" وعلاقته بالابعاد التربوية والنفسية في ضوء السياسة الشرعية، يتضح أن الإسلام لم يعرف في أصله انفصالاً بين الدين والدولة، بل قامت التجربة الإسلامية الأولى على وحدة المرجعية الدينية والتشريعية والسياسية. فقد مثّل الدين في الإسلام أساسا للشرعية السياسية، ومرجعا أخلاقيا وتشريعيا في إدارة شؤون الأمة، وهو ما تجلى بوضوح في ممارسات النبي محمد ﷺ والخلفاء الراشدين من بعده.

كما أظهرت الدراسة أن مفهوم "السياسة الشرعية" تطور عبر العصور، على يد علماء مثل الماوردي وابن تيمية وابن القيم، ليصبح إطارا فقهيا ومنهجيا لتنظيم الحكم بما يحقق مقاصد الشريعة ويراعي مصالح الناس. ومع أن التجربة التاريخية الإسلامية شهدت مراحل تراجع في التطبيق، إلا أن المرجعية الدينية بقيت حاضرة بوصفها ضابطاً للسلطة ومصدرا للشرعية.إن هذا التلازم بين الدين والسياسة في الإسلام لا يعني بالضرورة تداخلاً قهريا أو استبداديا، بل يفتح المجال لفهم مرن ومتجدد للسياسة من منطلق أخلاقي ومقاصدي، يوازن بين الثوابت الدينية ومتغيرات الواقع. ولذلك فإن إعادة قراءة العلاقة بين الدين والسياسة في ضوء السياسة الشرعية تمثل ضرورة فكرية لفهم الحاضر واستشراف المستقبل.

الكلمات المفتاحية: الابعاد النفسية، التربية، الدين، الشرعية السياسية التأصيل التاريخي.

The nutritional and educational dimensions of the concept of religion in light of Islamic policy

Assistant Professor / Bahdin Sabry Nayef Shamdin
Awareness Center for Consulting and Capacity Building – Erbil

Abstract

Following this historical and analytical exploration of the concept of "religion" and its relationship to Shari'a–based politics, it becomes clear that Islam, in its original form, did not advocate for a separation between

religion and state. Rather, the early Islamic experience was built upon the unity of religious, legislative, and political authority. Religion in Islam served as the foundation of political legitimacy and a moral and legal framework for governing the affairs of the Ummah, as exemplified in the leadership of the Prophet Muhammad ﷺ and the Rightly Guided Caliphs. The study also reveals that the concept of "political jurisprudence" (al-siyasa al-shar'iyya) evolved over time at the hands of scholars such as al-Mawardi, Ibn Taymiyyah, and Ibn al-Qayyim. It became a structured and principled approach to governance that seeks to realize the objectives of Shari'a while considering public welfare. Although Islamic political history witnessed periods of deviation from this ideal, the religious reference point remained a significant source of authority and legitimacy.This intrinsic connection between religion and politics in Islam does not imply coercive or authoritarian rule. On the contrary, it opens the door to a moral and purposeful understanding of politics, grounded in Islamic ethics and aimed at balancing religious principles with the realities of the modern world. Thus, re-examining the relationship between religion and politics through the lens of Shari'a-based governance remains essential for understanding contemporary challenges and envisioning a future rooted in both authenticity and reform.

Keywords: psychological dimensions, education, religion, political legitimacy, historical foundation

المقدمة

يعد الدين في الفكر الإسلامي أكثر من مجرد منظومة شعائرية أو إيمانية؛ فهو نظام شامل يتناول جميع جوانب الحياة، ومنها الجانب السياسي. وقد تميز الإسلام عن غيره من الأديان بعلاقة وثيقة بين الدين والسياسة، إذ نشأ في بيئة توحد فيها التشريع مع السلطة، والنص مع الواقع، فكان النبي ﷺ رأس الدولة وقائدها الديني والدنيوي في آنٍ واحد. ومع تطور التجربة السياسية الإسلامية، نشأت مبادئ ما يعرف بالسياسة الشرعية، وهي مفهوم إسلامي يعنى بإدارة شؤون الدولة بما يحقق مقاصد الشريعة ويراعي المصلحة العامة.

من هنا، تبرز أهمية دراسة "مفهوم الدين" ليس فقط من الزاوية الفقهية أو العقدية، بل من الزاوية السياسية التاريخية، لفهم كيف تبلور المفهوم، وكيف ارتبط بتجربة الحكم، ومتى ظهرت محاولات الفصل أو الدمج بين السلطتين الدينية والسياسية.

أهمية الموضوع:

١. تسليط الضوء على مفهوم "الدين" في ضوء الابعاد التربوية والنفسية، بعيدا عن التفسيرات السطحية أو المنفصلة عن السياق التاريخي.

٢ . إبراز العلاقة بين الدين والسياسة الشرعية، وفهم الأسس التي بنيت عليها نظم الحكم في الدولة الإسلامية.

٣. تقديم رؤية تأصيلية تساعد في فهم التحديات المعاصرة المرتبطة بفصل الدين عن الدولة أو دعوات الدم الكلي.

٤. الإسهام في الدراسات الفكرية والسياسية الإسلامية من خلال تحليل تاريخي عميق للمفاهيم المركزية في الإسلام.

منهجية البحث:

يعتمد هذا البحث على المنهج التأصيلي والتحليلي والتاريخي، وذلك على النحو التالي:

• المنهج التأصيلي: لتتبع الجذور اللغوية والشرعية لمفهوم "الدين" كما ورد في النصوص الإسلامية (القرآن والسنة) المنهج التاريخي: لتتبع تطور العلاقة بين الدين والسياسة في مراحل الدولة الإسلامية المختلفة (العصر النبوي، الراشدي، الأموي، العباسي...).

• المنهج التحليلي: لتحليل نصوص الفقهاء والمفكرين الإسلاميين الذين أسهموا في بناء مفهوم السياسة الشرعية وربطها بالدين (مثل الماوردي، ابن تيمية، ابن القيم).

إشكالية البحث: تتمحور إشكالية هذا البحث حول التساؤل الرئيسي التالي:

كيف تطور مفهوم "الدين" في السياق الإسلامي، وما مدى ارتباط هذا المفهوم بتأسيس السياسة الشرعية كنظام سياسي نابع من النصوص الدينية؟

ومن هذه الإشكالية تتفرع عدة تساؤلات فرعية:

١. ما هي الجذور اللغوية والاصطلاحية لكلمة "الدين"؟

٢ . كيف وظّف الإسلام مفهوم الدين في تأسيس الدولة والمجتمع؟

٣. ما هي الأسس التي قامت عليها السياسة الشرعية؟

٤. هل تم الفصل بين الدين والسياسة في التجربة الإسلامية التاريخية؟

٥. ما انعكاسات هذا الترابط أو الانفصال على الفكر السياسي الإسلامي المعاصر

تعريف الدين:

ينحدر مصطلح (الدين) من الكلمة اللاتينية (Realigns) حيث تعني حرفياً (ارتباط). ويشكّل ارتباط الإنسان، حسب اعتقاد المؤمنين، قسماً رئيسياً من الدين. يوجد في كل دين إعتقاد بعالم غير واقعي خارق، كأنَّ قاطنيه من آلهة وأرواح وملائكة ومبتهلين وأرواح المتوفين من الناس أو موجودات أُخرى خارقة. ويكون هذا الإعتقاد بالخارق بالذات الجزء المهم في كل دين.

جرت في العلم محاولات عديدة لتعريف الدين. إعتبر الفيلسوف الألماني كانت الدين بأنه إدراك الناس لواجباتهم الأخلاقية. أما الفيلسوف الألماني المثالي هيگل فقد استبدل مدرك [مفهوم] الإله بمدرك الفكرة المطلقة، محيلاً الأهمية الحاسمة في الدين للفترة العقلية. وحدد الفيلسوف الألماني المادي لودفيك فيورباخ، إنطلاقاً من المعنى الحرفي لمدرك الدين ، هذه الظاهرة كعلاقة بين الناس.

وسعى لتعريف الدين أيضاً كثير من ممثلي علم الإجتماع البرجوازي، فإعتبر الإثنوغرافي الإنگليزي إدورد تيلور الإعتقاد بالكائنات الروحية علامات الدين (الحد الأدنى من الدين) المهمة. وطابق رئيس مدرسة علم الإجتماع الفرنسية أميل دوركيهم الدين مع مدرك (المقدس) بإعتبار أن المقدسات يمكن أن تكون، أفكاراً وأدوات وبشراً. لقد قابل المقدس بالاعتيادي والدنيوي. إن فكرة (المقدس) تميز. حسب إعتقاده، الظواهر الدينية عن الأُخريات كافة. وأدرك سالمون رياناك مؤرخ الأديان الفرنسي الدين بنظام التحريم (التابو Taboo)، ناسباً للظواهر الدينية كلَّ محرمٍ ومحظورٍ (تابوي) .[١]

عيَّن كثير من ممثلي العلم البرجوازي المعاصر دوراً واسعاً للعواطف والإنفعالات في الدين. فعلى هذا النمط إعتبر الذرائعيون الأمريكيون جوهر الدين في توافر الأحاسيس والأمزجة والإنفعالات الدينية لدى إنسان مستقل. كان أسلافهم في هذه المسألة ممثلين لنزعة ما قبل الأرواحية [Pre–animism] المشيرة إلى أن في الدين لا يسود العقل بل الجهة الإنفعالية– الإرادية [Volitional]. يوجد كذلك ميل إلى إعتبار المنسك والعبادة فترة رئيسية في الدين وتعود بدايته إلى الإثنوغرافي الإنگليزي فريزر الذي عرف الدين كإستعطاف أو إستمالة الإنسان للقوى المجابهة له عالياً إلى جانبه، بيد أنَّ التعاريف المعروضة لا تعكس جوهر الدين الأصلي. أحدها ضيق جداً ولا يحتوي على كل ما يتعلق بالظاهرة الدينية. ففي تعريف تيلور، على سبيل المثال، يستبعد عن الدين كلَّ سحرٍ، والآخر أكثر وسعاً ويحتوي ظواهر لا تمت للدين بصلة (المحرمات، على سبيل المثال، التي لا تكون دينية فحسب)، وثالثها بأقصى الشمولية وآحادي الجانب [Unilateral]. وهكذا يلعب الإنفعال والشعور (الخوف والحب والتقدير) في الدين، طبعاً، دوراً كبيراً، ولكن هذه يمكن أن تستثيرها أسباب أخرى.

[١] ترجمة عن كتاب، دليل الملحد ، تأليف جماعة من العلماء السوفيت ، ط١٢، المنقحة والمضافة، دار النشر الحكومية، المطبوعات السياسية ، موسكو ، ١٩٦١م ، ص ص ١٣–١٨.

يرتبط مع الدين، بالطبع، تعريف الطقس والعبادة، ولكن هذه لا تكون هنا رئيسية. بعض الفرق المعاصرة إختزلت الجانب الطقسي في الدين إلى الحد الأدنى. إن عدم فهم العلماء البرجوازيين لجذور الدين الاجتماعية لا يسمح لهم بتعريف الدين بدقة.

عرف العلم الماركسي – اللينيني جوهر الدين بشكل صحيح: (ومهما يكن من شيء، فليس الدين الاّ الإنعكاس الوهمي في أذهان البشر لتلك القوى الخارجية التي تسيطر على حياتهم اليومية، وهو إنعكاس تتخذ فيه القوى الأرضية شكل قوى فوق طبيعية. [١]

الدين – هو الاعتقاد بالخارق، هكذا فهمته الماركسية التقليدية. عنى ف. إنكلز، متحدّثاً عن الانعكاس الديني ، الذي تتخذ فيه القوى الأرضية شكلاً غير أرضي، عنى بالأخيرة الخارقة . وينتمي للدين الإعتقاد بإله واحد، الصفة المميزة لما تسمى بالأديان(العليا)، والإعتقاد بآلهة طيبة وشريرة، الموجود لدى كثيرٍ من القبائل البدائية، والإيمان بالعرافة والفأل والمعجزة والتنبؤ. المعيار المؤشر واسع بما فيه الكفاية لكي يحيط بكل ما يتعلق بظاهرة الدين، وبنفس الوقت في درجة من الوضوح، بحيث مكن من تمييز الظاهرة الدينية عن الأخريات كافة. إنه ينكر الزعم اللاهوتي عن وجود تمييز مبدئي بين (الدين النظيف) و (الخرافات) – التمييز، الذي لا وجود له في الواقع.

نظرية أصل الدين:

أكدَّ ويؤكد اللاهوتيون وبعض الفلاسفة المثاليين بأنّ الدين خالدٌ، وجد في كلّ زمان وسيبقى في كلّ زمان لأن الشعور الديني يظهر لدى الإنسان فطرياً كالشعور بالجوع والحب والخوف والسعادة ... الخ. ومع ذلك جرت في أعماق الماضي محاولات تفنيد هذه المزاعم. بعد ذلك بقرون كثيرة عارض ماديو القديم– ديموقريط وابيقور ولوكريتس وآخرون ضدّ هذه النظريات معتبرين بأنَّ الآلهة صنعها الناس أنفسهم على صورهم وأمثالهم. دحض ماديو القرن الثامن عشر الفرنسيون – ديدرو وهولباخ وهليفستي ونيجون وآخرون – كذلك فكرة الأحاسيس الدينية الفطرية. ووجدوا أنَّ سبب ظهور ووجود الدين هو في جهل وخوف الجماهير الشعبية، التي خدعها رعاة العبادة المتمرسون [enterprising] . ثمَّن ف. إي. لينين عالياً أفضال الماديين الفرنسيين في حقل الإلحاد ولكن بيَّن مع ذلك بأن توضيح أصل الدين بجهل الناس وخداعهم فحسب،– يعني عدم فهم جذور الدين الإقتصادية والتاريخية الحقيقية .[٢]

معروفة في العلم البرجوازي نظريات متنوعة عن أصل الدين، تمتعت بشعبية في زمانها نظرية آي. تيلور عن أصل الدين الأرواحية [Animism]، المعتبرة الاعتقاد بالنفس والروح الشكل

[١] وطبعة ١٩٥٣ [الموجودة لدينا] نفس الصفحة. ونقلنا النص العربي عن ترجمة د. فؤاد أيوب، دمشق، ١٩٦٥، ص٣٨١.

[٢]. ف. إنكلز، أنتى دوهرنغ، دار النشر الحكومية، بيروت، ١٩٥٧، ص٢٩٩

الأول للتصورات الدينية. نشر عمله (الحضارة البدائية) في عام ١٨٧١م بعد أن ظهر في العلم مدرك (الأرواحية) ذاته [من اللاتينية ((animus،anima)) – (النفس)، الروح]. ظهرت الأرواحية، حسب ظن تيلور، كنتيجة لمحاولات (الهمجي – الفيلسوف) البدائي تفسير ظاهرات الأحلام والموت وغيرها لنفسه.

ظهرت، في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، كالنظرية الأرواحية الرجعية السلبية، نظرية ما قبل الأرواحية. زعم (الفيلسوف الإنكليزي پ. ماريت والعلماء الألمان ك. پرويس و أ. فيركاندات) بأنَّ الإعتقاد بالنفس والروح قد تقدم عليه الإعتقاد بقوة موحدة [عديمة الصفات الخاصة، مجهولة غير مشخصة وغير مجسمة impersonal – المترجم]: (مانا) لدى الماليزيين، (أورياندا) و(مانيتو) لدى هنود أمريكا الشمالية.. الخ.

وفي إنتقاد وجهة نظر الأرواحية لاحظ أصحاب ما قبل الأرواحية بصواب أن العقلية البدائية غير قادرة على أن توجد بهذه الدرجة من التعقيد تصورات تجريدية مثل النفس والروح فجأة ومع ذلك فانَّ استنتاجاتهم بنيت على نظرية مثالية.

وإنتقاد نظرية أصل الدين الأرواحية تضمنه مؤلف فريزر (الغصن الذهبي، في السحر والدين) (١٨٩٠)، الذي اعتبر بان الشكل الأول للعقائد كان السحر، على زعم أنه تقدم الأديان.

إتخذ اللاهوتيون المعاصرون عدتهم من نظرية البطارقة ولهلم شميدت (توفي ١٩٥٤) وفيلهلم كوبيرس الذين حاولوا إثبات أولوية التوحيد [فطرة الإعتقاد بإله واحد – المترجم]. ومن أجل إثبات نظريتهم سعوا إلى حقائق من حياة أكثر القبائل تخلّفاً. فانتقوا مواداً بتحيز في مهمتهم التبشيرية المبعوثة إلى مختلف جهات الكرة الأرضية.

وبمعونات الفاتيكان، يصدر أنصار هذه البعثة سنوياً، مؤلفات علمية جسيمة، خانقة القراء بغزارة معلومات واضحة التزييف فقدت، في الأيام الأخيرة، هذه البعثة الكاثوليكية هيبتها حتى بين العلماء البرجوازيين.

قدم العلم الماركسي – اللينيني موقفاً صحيحاً وحلاً لمسألة أصل الدين. كشفت الماركسية، مستندة على الحقائق العلمية، جذور الدين الاجتماعية والغنوصية [الإدراكية [1] [Cognitive وأظهرت طبيعية [regularity] ظهوره وتطوره وإحباطه.

العهد غير الديني في تاريخ البشرية:

إبتدع الفلاسفة المثاليون واللاهوتيون خرافة أن الدين وجد سرمدياً وهو متأصل باطنياً بالإنسان ويكون خاصية لا تنتزع من الطبيعة البشرية ذاتها. دحض العلم هذا الزعم. تظهر المعطيات الآثارية بأن في غضون مئات الألوف من سني وجود البشر أنفسهم لم يكن لديهم أيَّ دين. العصر الطويل في تاريخ المجتمع البشري كان غير ديني.

[1] والغنوصية gnosiological المعرفة العليا أو الروحية.

إنفصل الإنسان عن عالم الحيوان منذ حوالي مليون سنة. كانت الطلائع قردة شبيه بالإنسان– دريوبيتك، وقد إنقرض منذ أمد بعيد، ساعد العمل على إنفصال البشر عن عالم الحيوان، والذي كتب عنه ف. إنكلز بانّ هذا (هو أول ظرفٍ أساسي للوجود البشري، بأنّ "العمل خلق الإنسان ذاته".

وبلغ الإنسان في تطوره طائفة من الأطوار المتتابعة. كان البيتيكانتروب (قرد إنساني) [إنسان جاوة – المترجم] أكثر هذه المجموعات قدماً، كان عائشاً منذ حوالي مليون سنة. بقايا هياكل إنسان جاوة كان قد وجدها العالم الهولندي ديبوا في جزيرة جاوة في عام ١٨٩١ م. وفي نفس تلك الطبقات كانت قد تجلت أدوات حجرية خشنة، معدة من قبل إنسان جاوة.

يمثل السينانتروب (إنسان الصين) أعلى مستويات تطور الإنسان العائش منذ حوالي ٥٠٠ ألف سنة. كشف رفاة السينانتروب العظمية في ١٩٢٧ م العالم الصيني پاي – ڤين چيجون فى كهف كوتسبتانغ غير بعيد عن بكين، وبموجب هذه اللقى يمكن الحكم بأن السينانتروبين كان لهم دماغ كبير الحجم، وأكثر مناطق اللحاء تطوراً هو النخاع الدماغي، معبرة بوضوح عظام اليد اليمنى مع الإرتباط بالنطق الصوتي. وجد في كهفهم أدوات عمل حجرية وآثار نيران وعظام حيوانات ومع ذلك لم يعثر في التنقيبات على أي دليل بان لهم في هذا العهد تصورات دينية أياً كانت حتى أبسطها. إنَّ عصر وجود البيتيكانتروب [إنسان جاوه] والسينانتروب [إنسان الصين] كان فترة غير دينية في تاريخ المجتمع البشري.

ظهور الدين: بدأت الإعتقادات الدينية، حسب ما يبدو، تنشأ لدى إنسان نياندرتال العائش حوالي ١٠٠–٥٠ ألف سنة ق. م[١] فحسب . كانت عظام النياندرتال قد أكتشفت لأول مرة عام ١٨٥٦ م في وادي نياندر في ألمانيا، ظهرت أيضاً رفاة نياندرتاليين متأخرين في أفريقيا الجنوبية وفلسطين وأماكن أخرى. وعثر في الإتحاد السوفيتي على رفاة النياندرتال في ١٩٢٤في القرم في كهف كبيك – كوبا، گي. أ. بونج – اسماعيلوفسكي، وفي عام ١٩٣٨ في أوزبكستان في كهف تشيك – تاش أ. ب. أوكلانديكوف. التركيب البدني للنياندرتال يقربه من الإنسان المعاصر، كان متوسط القامة، دحداحاً [Stockey= قصير بدين عريض المنكبين – المترجم] بتطور عضلي رائع، وبدماغ واسع الحجم (حوالي ١٤٠٠ سم مكعب).

تدلل جنائز النياندرتاليين على ظهور المعتقدات الدينية لديهم، فهي آخر ما يودع في الكهف، المستخدم بنفس الوقت من قبل الأحياء. رقدت الهياكل العظمية على جنب، في تجاويف غير واسعة، مع ثني الركبة قليلاً. يفترض العلماء بان دفن أيدي وأرجل المتوفي متوسدة الجسد مما

[١] هذه المسألة لم تقرر علمياً بصورة نهائية بعد– فعلماء سوفيت أمثال أ. ب. أوكلادنيكوف ب. أي. بوريسكوفسكي ف. ك. نيكولسكي وآخرون يعتبرو ن بان الدين ظهر لدى النياندرتاليين، ويعترض عليهم م. س. بليستزكي ڤ. ف. زيكوفتس وآخرون منسبين ظهور الدين إلى أزمان أكثر تأخراً. في عام ١٩٥٢ فتحت مجلة (سوفيتسكايا أثنوغرافيا [الأثنوغرافيا السوفيتية] مناقشة في هذه المسألة معطية امكانية تبادل آراء وجهتي النظر.

يوضح التكلّف بوضعية الهيكل العظمي. كانت التجاويف مغطاة من الأعلى بالتراب والصخور. وفي هذا، كما في العلاقة بالجثة، ظهر خوف الإنسان البدائي قبل الموتى، علاقة وسواسية به .[١] وجدت في مغاور دراخبنلوخ (سويسرة) وبيترسخيله (بلغاريا) جماجم دببة الكهوف محاطة بأحجار، تنتسب اللقى إلى نفس عهد الدفائن النياندرتالية. توجد فكرة أساسية بان قاطني المغارة المحتفظين بجماجم الدببة تأملوا أن تقدم هذه [الجماجم] للحيوانات المقتولة إمكانية العودة للحياة من جديد. كان مولد العبادة الدينية مرتبطاً بالحيوانات المستهدفة للصيد.

من المهم ملاحظته بان جمجمة الطفل النياندرتالي في مغارة تشيك – تاش كانت محاطة بعشرات مزدوجة من قرون التيوس المنغرزة بالأرض. كان صيد التيوس الجبلية واحداً من مهمات قاطني مغارة تشيك – تاش الرئيسية وطبيعياً كان مولد العبادة الدينية مرتبطاً بموضوع الصيد الأساسي.

تصورات الكرومانيين الدينية:

تحوز التصورات الدينية لدى الكرومانيين العائشين في عهد القرن الحجري المتأخر منذ حوالي ٤٠ – ٣٠ ألف سنة على طبيعة أكثر وضوحاً. كانت هياكل الكرومانيين العظمية قد وجدت لأول مرة في مغارة كرو – ماندن في فرنسا في عام ١٨٦٨م. لقد إستكمل بالأساس التطور البايولوجي لإنسان هذا الزمن فلا يوجد في مظهر الكرومانيوني الخارجي أي اختلاف عن الإنسان المعاصر. كان مستوى تطوره الاقتصادي والتقني أكثر إرتفاعاً مما لدى النياندرتالي. أدوات العمل كانت أكثر تنوعاً وأحسن إعداداً، أسلحة الصيد أفضل تخصصاً، فأساليب الصيد من مثل التطويق وإثارة الطرائد من مكامنها والشراك منحت الناس غذاء إحتياطياً معلوماً وامكانية عيش أوسع أو أقل تحضراً. تظهر قرى غير واسعة ومساكن دائمية– المخابي [dug– out]. نالت النار إستعمالاً واسعاً، التي أستخدمت لأجل التدفئة وتهيئة الطعام.

ويعود إلى هذا العصر من تاريخ البشرية، بصورة خاصة ظهور القبلية المشاعية، بلوغ تغيير المرحلة البدائية. إرتبط أعضاء المشاعية القبلية بالنسبة الدموية وبالاقتصاد العام: عاشوا في قرية واحدة وامتلكوا المقتنيات سوية ، واكتسبوا وسائل العيش مشتركاً . كان النظام القبلي قد أُرسي على مبدأ الجماعية [Collectivism= التعاونية الجماعية – المترجم]، كلُّ شيء يقسم سوية ويوزع بالتساوي يفنى الشخص خارج الجماعة [Collective]. في البداية وجد خط الأمومة في القرابة، حيث وجد في المجتمع الزواج الجماعي وكان الأب غير معروف في أكثر الأحوال. يرأس الأسرة شيخ، أُختير لهذه الوظيفة بحكم جدارته الخاصة. وكان يدير نشاط الجماعة الاقتصادي ويراعي الإلتزام بقواعد القانون المألوفة وينهي المخاصمات والمخالفات. وأما أكثر القضايا أهمية فيقررها اجتماع أعضاء القبيلة الراشدين.

[١]. كارل ماركس و ف. إنكلز ، المؤلفات، المجلد ١٤ ص٤٥٢.

يتميز دين هذا العصر، بتطور العبادة الجنائزية [Funeral] المستطرد. إكتشف الآثاريون السوفيت في عام ١٩٥٣ م إحدى المقابر الكرومانية في قرية كوستيناك قرب فورونج كانت عبارة عن بناية بيضوية من عظام الماموث، ملاصقة لمسكن. عثر في مركزها على هيكل عظمي لرجل كهل، وضعيتها تشابه المدافن النياندرتالية. حدد النحات والأنثروبولوجي م. م. غيراسيموف بأن المتوفي كان قد أُجلس موثوقاً بأقدام مضمومة ومنحنية بحدة نحو البطن. كان خوف الكرومانيين من اقاربهم الموتى سبب التقييد حرصاً منهم على حرمانهم من إمكانية التخلّص من القبر وإلحاق الأذى بالأحياء. ولعادة تقييد الموتى قرائن إثنوغرافية متعددة، فكانت لدى الأسكيمو وببياوي [Papuan]غينيا الجديدة، ولدى شعوبٍ أُخرى. هنا عنصر الدين – الإعتقاد بخصائص المتوفي الخارقة.

ظهرت في عهد الكرومانيين فنون جميلة ممتلكة أحياناً مغزى سحرياً [خلاّباً bewitching]. أُكتشف إلى الوقت الحاضر في اماكن مختلفة من الكرة الأرضية أكثر من ٧٠ كهفاً قديماً (المغارة التاميرية في اسبانيا ومغارة الأخوة الثلاثة في فرنسا وغيرها) والتي مغطاة جدرانها وسقوفها برسوم مختلف الحيوانات: الأرخص [aurochs – ثور أوربي شبه منقرض – المترجم] وعفر [wild– boar = خنزير بري – المترجم] والأيايل [Reindeer– غزال الرِنة – المترجم] وغيرها، المهمة جداً لاقتصاد الكرومانيين القنصي. توجد في الأغلب رسوم الجريحة في صور هذه الحيوانات. من الواضح أن الإنسان البدائي كان يأمل بمساعدة رسومه كسب صيد ثرٍ. وهذا كان شعوذٌ صيد موجهة لإنماء وسائل العيش .[١]

وتؤكد الحقائقَ الإثنوغرافية تفسيراً مماثلاً. فعلى هذا النمط رسم الأستراليون، المتهيئون لصيد الكنغر، صور هذا الحيوان على الرمل، وطعنوا نموذجه، معتقدين بان عملهم في الرسم هذا سيحدث مثيله في الواقع .

جذور الدين البدائي الإجتماعية:

كان سبب ظهور الدين هو إنخفاض مستوى تطور المجتمع الإبتدائي الإقتصادي وما ينجم عنه من عجز الإنسان البدائي في صراعه مع الطبيعة. كانت محاولة في العلم لجعل العصر البدائي مثالياً [idealize]، أطلق عليه فيلسوف القرن الثامن عشر الفرنسي جان جاك روسو (قرون البشر الذهبية). كتب لينين فاضحاً هذه التشخيصات: (بأن الإنسان البدائي نال ما يلزمه، كالحرية هبة الطبيعة – هذه خرافة غبية ...لا يوجد أبداً قرن ذهبي وراءنا فالإنسان البدائي كان مكبوتاً بمشقات الوجود، مشقات الصراع مع الطبيعة).

كانت ظروف حياة الإنسان البدائي صعبة وقاسية للغاية، كانت أدوات عمل هذا العهد، المصنوعة من الحجر والعظام والخشب، بدائية، كما وليس بمقدور الأشكال الأساسية للنشاط

[١]. ف.إي. لينين، المؤلفات، القاهرة، مجلد٥، ١٩٩٩، ص٩٥

الإقتصادي – الصيد والجمع – أنْ تمنح الناس حياة مضمونة تماماً. فقد تخطى الصيد لحد كبير عن النجاح. أما الغذاء النباتي فكان الحصول عليه ممكناً في أوقات محددة من السنة فحسب. وتبدلت عهود أزمان وفرة المحاصيل إلى مجاعات مستديمة، وأدّت هذه إلى وفيات عظيمة فمات (٥٥%) من النياندرتاليين، كما تظهر دراسات بقاياهم العظمية، بعمر حوالي العشرين تقريباً، ولم يعمر ولا واحداً منهم حتى الخمسين عاماً. وعاشت الجماعات البشرية المشتتة في أرجاء الأرض الفسيحة، بإنقسام وعزلة البعض عن الآخر مما شدد ذلك أكثر من ضعفهم تجاه الطبيعة.

إن ضعف الإنسان البدائي – ذلك هو السبب، الذي أحدث أولى التصورات الدينية في الحياة.

الجذور الغنوصية[١] للدين البدائي:

لكن البيتيكانتروب [إنسان جاوة] والسينانتروب [إنسان الصين]، الذين عاشوا لمدة طويلة قبل ظهور الدين، كانوا، بلا ريب، أكثر عجزاً تجاه قوى الطبيعة من النياندرتاليين والكرومانيين، ومع ذلك فأن التصورات الدينية لم تظهر لديهم. بماذا يفسر هذا؟ حقيقة الأمر أن في صراع بعض ضعاف البشر ضد الطبيعة لم يكن كافياً لظهور التصورات الدينية. للدين أيضاً جذور المعرفة الروحية (الإدراك) [الغنوصية – المترجم]. لاحظ ف.إي. لينين، في الدفاتر الفلسفية، بان قدرة العقل البشري خلقت تصورات وهمية متنوعة، وبضمنها الدينية: (اقترب عقل [الإنسان] من الشيء المستقل، إنتزاع النموذج [المدرك] منه ليس بسيطاً، بلا تكلّف ، فعل انعكاسي مجدب ، وإنما معقد ومتفرع ثنائياً ومتعرج [zigzag] متضمناً بذاته امكانية اطلاق الخيال في الحياة فضلاً عن ذلك امكانية تحول (زد على ذلك تحول غير محسوس ولا مفهوم للإنسان) المدرك المجرد إلى خيال (في نهاية الأمر – إله)، تؤدي هذه الإمكانية، عند توفر الجذور الإجتماعية المحددة إلى ظهور الدين واقعياً. قال ف. إي. لينين، متجلياً جذور الدين الغنوصية: (بأن الدين ليس باطلاً لا أساس له، أنه، بلا شك، زهر عقيم، ولكن زهراً عقيماً نامياً على شجرة حية، المعرفة الإنسانية الحية المثمرة الحقيقية الجبارة الكلية المقدرة الموضوعية والتامة).

لا يزال الإنسان البدائي، المكتسب معرفة عملية محددة، غير قادر على فهم الكثير. أدى الفهم الخاطئ لجوانب الحقيقة المتنوعة إلى بدء الإنسان في فصل الصفة عن الشيء في تفكيره. بقيت قوى الطبيعة السائدة على الإنسان تنعكس في وعيه بشكل خيالي. ليس كل باطل، تصور وهمي، يصبح دينياً. تغلّبت البشرية على غالبية أغلاطها في عملية [process = مسيرة –

[١] الغنوصية، كما ذكرنا في الهامش رقم (٣)، = المعرفة الروحية = نظرية المعرفة. والغنوص gnosio المعرفة الروحية والغنوسطية مذهب العرفان Gnosticism المعرفة بالشؤون الروحية. أنظر القاموس الروسي – الروسي لمؤلفه أس. أي. أجيگوف، موسكو، ١٩٦١، ص١٣١، قاموس المورد إنكليزي – عربي، منير البعلبكي، بيروت، ١٩٧٠، ص٣٩، وقاموس ويبستر الإنكليزي، شيكاغو، ١٩٤٦، ص٢٢٩ – المترجم.

المترجم] التكيف وإدراك العالم وعندئذ تحولت فقط التصورات الوهمية، الباطلة إلى دينية، عندما لم يكن الوعي البشري في وضعية لدحضها، فصار يحدث عالماً خارق القوى غير جوهري .[١]

أشكال الدين المبكرة:

بطبيعة النظريات البرجوازية عن أصل الدين، إحدى نقائص الإستقرائية العامة – محاولتها تعيين شكل الإيمان الديني الأول وبعد ذلك تخرج منه الأشكال الأخيرة. على هذا النحو اعتبر اي. تيلور الشكل الأول للدين الاعتقاد بالأرواح والأنفس، آر. ماريت الإعتقاد بقوة معينة عديمة الشخصية، فريزر بالسحرية، إلى آخره، توصل البرجوازيون إلى مثل هذا الرأي عن أصل الدين لأنهم يعتبرون تطور الدين كعملية مستقلة غير مرتبطة بظروف حياة المجتمع المادية. بيد أنَّ الحقائق الملموسة تدحض الوصول إلى هذه المثالية بطبيعتها. فقد أظهرت معطيات الآثار عن الشعوب البدائية والمواد الإثنوغرافية عن حياة أكثر القبائل تأخراً وجود أشكال متنوعة من التصورات الدينية في آن واحد لديهم. أوجد دين المجتمع البدائي جميع شيع المعتقدات المتنوعة والمقدسات والطقوس. هذه المعتقدات والطقوس لم تكن مستقلة، منعزلة بعضها عن الأخر، وإنما، على العكس، كانت تظهر بإرتباط وتعاون وثيق. على سبيل المثال كان للسحر حضور في الطوطمية وفي الأرواحية: كثير من التصورات الطوطمية كانت مرتبطة بالإيمان بالأرواح. لنلاحظ بعض أشكال المعتقدات والطقوس الدينية الأكثر قدماً.

الطوطمية **Totemism:**

الطوطمية – هي تصور عن إرتباط خارق وتناسب بين جماعة من الناس وجنس حيواني محدّد ونبات ونادراً – الأشياء. أُخذت مدارك (طوطم) من لغة قبيلة أدجيبف هنود أمريكا الشمالية التي تعني لديهم (قبيلته، جنسه، أسرته). إن أكثر الدراسات تطوراً وأحسنها هي التي عن طوطمية القبائل الأسترالية. لذا تسمى استراليا صفحة الطوطمية (التقليدية)[٢] . حملت الأجناس والفراتيري (جماعات الأجناس المتناسبة) أسماء طوطمية حيوانية ونباتات. تتألف، على سبيل المثال، قبيلة آرابان من ١٢ عشيرة لها تسميات: النسر ذو الذنب الأسفيني، غراب، والدنغ [Dingo، كلب استرالي – المترجم]، اليسروع [Caterpiller – المترجم]، ضفدعة، وحية، الخ. أُعتبِر الطوطم جد العشيرة وسلفها لذا إرتبطت به كافة صنوف المحارم: تحريم قتل الطوطم واستعماله في الطعام (مع إستثناء المراسيم الطقوسية)، تحريم إيذائه بأي ضرر. حيث يفهم الأستراليون بأن قتل الطوطم أو إيذاءه بأية أضرار من لدن وجوه غريبة كإهانة خاصة. تروى أساطير كثيرة العدد عن الأسلاف الطوطميين – كائنات وهمية، أنصاف بشرية – أنصاف حيوانية، عن حياتهم

[١]. ف.إي. لينين، الدفاتر الفلسفية، دار النشر الحكومية، بيروت، ١٩٤٧ ، ص٣٠٨.

[٢] كان سكان استراليا الأصليون – الأستراليون، حتى لحظة الاستعمار الحديث الإستيطاني (نهاية القرن الثامن عشر) في طور المشاعية البدائية المبكرة، لهذا كانت عقائدهم الدينية تقدم تصورات عن اشكال الدين القديمة.

ورحلاتهم ومآثرهم. كانت بعض الطقوس الطوطمية شبيهة للأساطير قابلة للتمثيل[١]. أُعتبرت الأساطير والطقوس مقدسة ويعرفها الرجال المرسمين [Consecrating] للطقوس القديمة فحسب.

إعتقد الأستراليون بقدرتهم على التأثير في الطوطم. وجدت لديهم مراسيم خاصة (انتيجيوما) [التسمية مأخوذة من لغة قبيلة أرند] التي كانت بقصد تمهيد السبل السحرية لتكاثر الحيوانات والنباتات الطوطمية. كان الرقص يؤلف القسم الرئيسي من المنسك، وكان المساهمون به حريصون على مظاهرهم الخارجية، أغطية الرأس، الأقنعة، نقش الجسم الخاص وكذلك حركات تشابه الطواطم. يتألف القسم الختامي من الطقس [المنسك] من تناول الطوطم باحتفال جماعي ليتروجياً [Liturgical] باعتباره أسلوباً للارتباط به.

إرتبطت الطوطمية – إحدى أشكال دين المجتمع القبلي المبكر بقوة مع تلك الأشكال من الإقتصاد، كالصيد وجمع القوت. فأصبحت الحيوانات والنباتات، المانحة للناس إمكانية الوجود، بالنسبة لهم موضوع عبادة دينية. إنعكست في الطوطمية كذلك خصائص العلاقات الإجتماعية البدائية، المؤسسة على مبدأ القرابة الدموية. ونقل الناس الذين لا يعرفون غير الوشائج الدموية من علاقات أخرى في المجتمع، نقلوها إلى الطبيعة الخارجية.

فُهم إرتباطُ أعضاء القبيلة بعالم منطقتهم الحيواني والنباتي كقرابة دموية.

لَم يتقرر الإعتقادَ الطوطَمي لدى الأستراليين فحسب، وإنما لدى قبائل أخرى كثيرة: هنود أمريكا الشمالية والجنوبية وفي أفريقيا وماليزيا ولو أنّهم لا يبدون هنا منذ زمن بهذا الشكل (التقليدي) مثلما لدى الأستراليين، طالما أن هذه القبائل تجاوزت مرحلة المجتمع القبلي المبكر.

تكون لدى الهنود تسمية سلالات طوطمية وفراتري وأساطير عن نشأة الأجيال من الطواطم والمحرمات الطوطمية. تنفذ على شرف رقصات دينية: رقصة الذئب ورقصة الدب ورقصة الغراب والخ. أُعتبر الطوطم ظهيراً لذا فأن صوره رسمت على الأسلحة وأدوات المعيشة والمسكن. فنصب تلينكيتي سواحل شمال غربي أمريكا الشمالية أمام كلِ بيتٍ عموداً طوطمياً مغطى برسوم السلف الطوطمي.

برزت، بدرجة أعلى من التطور، استناداً إلى الطوطمية المتأخرة، العبادة الحيوانية، الموجودة لدى الكثير من شعوب العالم. وجدت في مصر القديمة عبادة حيوانات مقدسة: الثور وابن آوى والتيس والتمساح.. الخ، والمعتبرة آلهة مجسدة [Incarnation] كُرِست لها معابدٌ وأهديت لها القرابين. صوِر الكثير من الآلهة المصرية بهيئة حيوانية: إله الأموات أنوبيس– بصورة ابن آوى وإلهة الحب والخصب ايسيدا– بهيئة إمرأة برأس بقرة. وعبدت في الهند القديمة الأبقار والنمور

[١] لقد استعمل كلمة انتسزوفكا الروسية التي تقابل الكلمة الإنكليزية dramatization – تصلح (الرواية) للتمثيل، من الفعل dramatize يمسرح أو يفرغ في قالب مسرحي–.

والقرود وغيرها من الحيوانات. ويقام على شرف البقرة كلَّ عامٍ مهرجانات خاصة. وتقابل القردة بكميات كبيرة في شوارع المدن الهندية ولا يستطيع أحد أن يمسها.

الأرواحية: [**Animism**– مذهب حيوية المادة – المترجم]

إعتبر اي. تيلور مدرك (الأرواحية) مكافئ لمدرك (الروحانية، الروحية Spirituation) وعنى بهما تصور عن أنفس وأرواح معنوية [incorporeal] وفي هذه الحالة تندمج في مدرك (الأرواحية) العقائد البدائية بالأنفس والأرواح والتي حقيقة لها غير هذه الصفة.

كانت التصورات الأرواحية من خاصية الشعوب جميعها وظهرت في مرحلة نظام المشاعية البدائية. أُجبر البدائيون غير الفاهمين لظاهرة الحالة النفسية الذاتية على إفتراض وجود الروح لدى كل شخص، مستقلة عن الجسد، واُعتبرت مصدر الحياة والمعرفة. حمل التصور عن الروح في البداية صفة مادية ملموسة: ارتبطت الروح دائماً بالشبح أو النفس (التنفس) في لغة كثير من القبائل – الطسمانيين والألكويكيني أمريكا الشمالية وزولو أفريقيا،النفس والشبح يعنيان نفس المصطلح، الذي يشهد على تطابق هذه المدارك.

ترتبط الروح لدى عدة شعوب بالنفس (التنفس). درجت قبائل غربي استراليا وبعض قبائل كاليفورنيا واسكيمو غرينلاند والماليزيون وكذلك شعوب حديثة كثيرة على استعمال كلمة واحدة ذاتها لتوضيح الأرواح والأنفس. وفي اللغة الروسية ينحدر مدرك (النفس) من كلمة (التنفس). ويرتبط تعريف الروح أحياناً بالدم فلدى العرب واليهود القدماء وشعوب أخرى للروح والدم تسمية واحدة.

تكشف الحقائق التالية لأية درجة كانت قوية التعاريف عن الروح المادية: إعتبر أسكيمو غرينلاند بأن أرواح سمان الناس دسمة والنحاف – أرواحهم هزيلة. يقتطع الأستراليون من قتلى أعدائهم إصبع اليد اليمنى لكي لا تستطيع أرواحهم من رمي رمحٍ. تدحض هذه المادة الإثنوغرافية زعم أي . تيلور عن أن الروح تراءت منذ البدء كشيء غير مادي، روحي .

ظهور الاعتقاد بالآخرة:

لم يستطع الإنسان البدائي أن يتصور بنفسه أين يحل الوجود الوهمي للروح. ظهرت تدريجياً فكرة عن الوجود التلقائي للروح بعد موت الجسد. ليست الضرورة الدينية في المواساة – كتب أنكلز– هي التي أفضت في كل مكانٍ، إلى الأكذوبة المملة عن الخلود الشخصي، بل ذلك الظرف العادي، حيث أُعترف ذات مرة بوجود الروح، ذلك لأن البشر، بحكم التصور العام، لم يكن بمقدورهم أن يوضحوا لأنفسهم أين تتوارى [الروح] بعد موت الجسد.

صور وجود الروح بعد وفاة الشخص على غرار حياة الإنسان الدنيوية. فنسب للروح الاحتياجات البشرية الاعتيادية: للطعام واللباس .. والخ وتفسر هذه شيوع، هنا وهناك، عادة إكساء المتوفي أحسن الملابس والزينة ووضع الأكل والشراب في القبر وإشعال النار. وتظهر بقاياها في

المسيحية بالوليمة التأبينية [Funeral Repast] لدى الوفاة والعصيدة [كوتيا = خبيط ، وهو عادة من الرز بالعسل والزبيب يؤكل في الولائم الجنائزية- المترجم][1] لدى الدفن. ويودع الشخص، بإعتبار أن روحه تبعث في الآخرة بعد الوفاة، والذي تراءى أيضاً وفق النموذج الدنيوي، أما في الجبال (البشمن) وأما في جزيرة معينة (سيمانك شبه جزيرة ملقا) وأما في باطن الأرض (الأندمانتس)، وإعتبر الأندمانتسيون الآخرة تشبه الواقع بالضبط، فهناك غابة وبحر وحيوانات ونباتات وتقتنص الأرواح في هذا العالم وتصطاد السمك، أي أنها تعيش كما يعيش الناس على الأرض. ومن المميز أن الآخرة لم ترتبط منذ البداية بفكرة المكافأة، فكرة الجنة والنار.

صورت الآخرة مشتركة للجميع وبالضبط مكتنفة [محيطة بـ] كالعالم الدنيوي. وجد إلى جانب الإعتقاد بالآخرة لدى الكثير من القبائل والشعوب (الأستراليين والهنود الأمريكيين وآخرين)، تصور عن الروح المتجسدة، هكذا إعتبر الأستراليون بأن روح الشخص يمكن أن ترحل بعد وفاته إلى حجرٍ أو شجرة أو إلى أية أداة ثم تتجسد من جديد في طفل حديث الولادة. وعند قبيلة ارانداً صخرة كبيرة تقع عند الينابيع الأليسكية إعتبروها أرواحاً مستقرة، مترقبة للتجسيد ، التسمية المحلية لها ايراتيبا) (صخرة أرواح الأطفال) وتذهب النساء الراغبات في الحصول على أطفال إلى الصخرة ويناشدن أرواح الأطفال أن تلج أجسادهن، أما تلك اللواتي لا يرغبن في الحصول على أطفال فيسعين إلى إخافة أرواحهن تحسباً من الشيخوخة.

السحرية [:**Magic]**

أثار تصور القوى الخارقة الرغبة لدى الإنسان البدائي في جعل هذه القوى تعمل في الاتجاه الضروري له. عقد الإنسان الجاهل غالباً للسبل الصحيحة لبلوغ هذا أو ذاك الهدف العملي، عقد أمله على السحر. والسحرية [من الكلمة الأغريقية Uatela التي تعني سحراً sorcerer شعوذة] وهذه طقوس مرتبطة بعقيدة أهلية الشخص في التأثير، بطرق خارقة، بالعالم المحيط – البشري والحيواني والظواهر الطبيعية وكذلك بالأرواح والآلهة الموهومة. يبرز واضحاً بشكل خاص في السحرية [الدافع] الرئيسي لإستدعاء الدين في الحياة. فأكره الناس غير الحاذقين للتأثير في العالم الخارجي بوسائل حقيقية على السعي جرياً لإستعمال وسائل مشعوذة غير حقيقية سحرية. (الضعف – كتب ك. ماركس – ينقذ دائماً بالإيمان بالمعجزة. فهو يعتبر الأعداء مقهورين إذا تسنى له [للضعيف] التغلب عليهم بوساطة تعاويذه الوهمية)

أشار غ . ف. پليخانوف، موضحاً جوهر السحرية، بأنها مؤسسة (على عدم كفاية وضوح التباين بين تلك التي تدخل في رأس الشخص وتلك التي تحدث في الواقع، حيث أنها تخلط الظواهر الموضوعية بالذاتية) والطقوس السحرية، المنتشرة لدى جميع شعوب الكرة الأرضية، متنوعة

[1] ك. ماركس و ف. أنكلز، عن الدين، موسكو، ١٩٥٥، ص١٧٥

للغاية. وتنقسم إلى جملة أصناف: السحرية الإنتاجية والمؤذية جداً والعلاجية وغيرها. إن كلَّ واحد من هذه الأصناف له جذوره المادية الخاصة المرتبطة بظروف حياة البشر الملموسة .[١]

السحرية الإنتاجية:

كان الرئيسي في حياة الإنسان البدائي وفرة وسائل العيش لذا فإن جزءاً مهماً من الطقوس السحرية مرتبطٌ بنشاطه الإقتصادي. والمثال الذي يمكن أن يستخدم هو طقس صيد الأستراليين السحري، المنوه عنه سلفاً – رسم القنغر على الرمل وطعنه بالحراب. وجد طقس مشابه في القرن الثامن عشر لدى سكان كامتشكا– الإيتيلميين الباقين في ذلك الزمن في مرحلة نظام المشاعية البدائية. كانوا يهيئون تمثالاً لذئب من عشب محلّى وشحم خنزير وسمن فقمة ويرمونه بالقسي ومن ثمَّ يأكلون الأجزاء المقطّعة.

بقيت الطقوس السحرية مع التحول إلى الزراعة وتربية الماشية تمارس بأمل التأثير بقوى الطبيعة. واكتسبت أهمية أعظم الطقوس الموجهة نحو وسائل الإخصاب. بقي بعضها محفوظاً حتى زمنٍ غير بعيد. كان الفلاحون في قرى روسيا قبل الثورة يرتدون قبل الزرع بياضات نظيفة لكي يكون الحقل نظيفاً ولا ينبت طفيليات وفي حوض الكرنب [الملفوف، اللهانة– المترجم] يوارون صخوراً كبيرة مستديرة لكي تكون رؤوس الكرنب كبيرة مرصوصة كالصخور. وقبل زراعة الكتان تنسل الفتيات ضفائرهن ويمشطنها لكي يصبح الكتان طويلاً مثل شعورهن وإلى آخره. ولنشاط البشر الإنتاجي إرتباط بالسحر المناخي. طقوس استدعاء المطر والريح وغيرها. وهكذا يسكب الساحر الهندي لغرض استدعاء المطر [الإستسقاء – المترجم]، الماء من سطح كوخه. ويعمل الببياويون [اصل سكان غينيا الجديدة وبعض جزر ماليزيا][٢] لإستدعاء الريح، الضرورية لهم في انتقالهم بالبح، ضجيجاً ويصفّرون، أُسست طقوس مشابهة على إقتناع الإنسان البدائي بان الفعالية المرغوبة ممكن استدعائها بتقليد هذه الفعالية. ولجهل الناس بالإرتباط الحقيقي بين الظواهر فقد وضعوا بمحلها إرتباطات مشعوذة، فنطازية [وهمية].

السحرية المؤذية:

كانت السحرية المؤذية أحد أشكال السحر القديم والأكثر إنتشاراً. وكان أساسها الأصلي الخصومة ما بين العشيرة وما بين القبيلة. أُعتبر أعضاء القبائل الغريبة، ولاسيما العشائر التي استثارت علاقات متحذّرة عدائية، مؤهلون لجلب الشقاء والمرض والموت وتفسير ذلك أن سبب مرض ووفاة الناس لم يكن واضحاً على الدوام. يعزو الأستراليون أي موت، عدى الوفاة في المعركة، إلى فعل سحري.

[١]. غارهام . ف. پليخانوف، مقالات عن الدين،القاهرة، ١٩٢٥، ص٢٨.

[٢] ن. م، ص٤٨١

تمتلك بعض القبائل تطبيقات إختصاصية لإتمام طقوس السحرية المؤذية. لدى الأستراليين تقوم بهذه الوظيفة ما تسمى بـ كوستيبويا – العصا العظمية، مرهفة من إحدى النهايات وكليلة من الأُخرى، شُدَّ شريطٌ إلى النهاية الكليلة من الكوستيبويا. يعتقد الأستراليون بأنّ توجيه النصل نحو العدو يمص الدم، الذي يخرج عبر الشريط من جسده. تهيب المحليون من منظر الكوستيبويا وسموها عظْمة الموت.

غالباً ما تَنفذ طقوس السحرية المؤذية على ضحايا مشخصة [مصورة]. مثلاً، لدى عشيرة ارانداً، في حالة هروب الزوجة يرسم الزوج على الأرض صورتها ويخرمها بالرمح ومتفوها بتعاويذ سحرية مناسبة. وينفذ هنود أمريكا وعشائر أخرى كثيرة غيرهم طقوساً مماثلة.

تعتبر الطقوس السحرية مؤثرة بشكل خاص إذا ما نفذّت على أية أدوات كانت سابقاً في تماس مع الضحية: أظفار وشعور وملابس وفضلات طعام.. الخ. إجتهدت قبائل جنوب شرقي أستراليا، الراغبة في إلحاق الضرر بأعدائها، في الحصول على ما يعود لأعدائها من أشياء ودخنوها لزمن طويل بالدخان. ويرمي الماليزيون في النار، للغرض ذاته، شعور أو فضلات طعام الضحايا المشخصة، على إعتبار أن نتائج الأفعال المماثلة سيكون مرض أو وفاة الشخص. يوضح الخوف من السحر عناية كثير من الشعوب بأظافرهم وشعورهم وفضلات طعامهم إلى آخره. يعلن ن. ن. ميكلوهو – ماك لاي حقائق هامة عن علاقات مشابهة عندما إحتاج للأغراض العلمية أن يجمع مجموعة من شعر الببياويين فقد تمكن من ذلك بصعوبات جمة.

وافق الببياويون على اعطاء شعورهم فقط بعد ان عرض عليهم مكلوهو– ماك لاي عوضاً عنها حاجياته. كذلك عناية الببياويين بفضلات الطعام فلا يرمونها مطلقاً، وانما يخفونها بإحكام أو يأخذونها معهم.

السحرية العلاجية:

يتألف علاج القبائل البدائية التطبيقي من تمازج الوسائل المنطقية والسحرية فالأستراليون، على سبيل المثال، إلى جانب الوسائل المنطقية في العلاج – التدليك [المساج] واللبخات والأعشاب وغيرها– يتعاطون مختلف الجرعات السحرية: إمتصاص البلور الوهمي، الظاهرة من وجهة نظر هم، سبباً للمرض، والنطق بالتعاويذ [تعزيمة التوسل]، إلى آخره، ويمارس سحرة اختصاصيون – متطببون معالجة المرضى لديهم. إعتبرت شعوب روسيا ما قبل الثورة الشمالية إيفنكي وجوكچي ونيفخي وغيرها بأن المرض نتيجة لإستيطان روحٍ شريرة أو إختطافها نفس مريضة. يعالج المريض الشامان [Shaman– كاهن يستخدم السحر لمعالجة المرضى ولكشف المخبأ

وللسيطرة على الأحداث – المترجم][١] . ويوصل نفسه إلى حالة النشوة الروحية [الإنجذاب الصوفي ecstasy] رقصاً بإعتبارها تمهد سفره في بلد الأرواح لإختطاف النفس.

السحر العلاجي – واسع الإنتشار وصورة وطيدة للسحر، ويوجد لدى كل الشعوب زد على ذلك أنّ تعاطيه باقٍ تقريباً بشكل ثابت في مراحل متنوعة من التطور الإجتماعي إبتداء من الأستراليين وإنتهاء بشعوب أوربا الشمالية.

يوجد لدى كثير من القبائل والشعوب إعتقاد بالخواص الخارقة لمختلف الأشياء–التمائم[٢] ، الموصوفة بالقابلية على الحماية من التعاسة والأمراض وإلى آخره وتوصف التمائم كذلك بالقدرة على تقوية كفاءة الإنسان الطبيعية، قوته وصبره وانتباهه وحذاقته .

حيوية [animated] الطبيعة:

مع تطور الأفكار التجريدية نالت التصورات عن بداية الأرواح الملموسة صفات أكثر عمومية. فعوضاً عن أرواح متفرعة للأشجار ظهر نمط روح الغابة عامة وعوضاً عن الرياح المختلفة – طراز روح الريح عامة.. الخ. وتظهر الطبيعة في تصورات الإنسان البدائي مسكونة كلها بأرواح متنوعة تمتلك بالزعم قوة خارقة. وخلافاً عن النفس، التي إرتبطت دوماً بالأشياء الملموسة، وصفت الروح بوجود الكفاءة المستقلة عنها. إستطاعت الأرواح إبقاء أنفس أناس متوفين منذ أمد بعيد. وبنفس الوقت فأن أنفس الأقرباء الأدنين تتجسد في أرواح محسنة بارة وأما الغرباء – إلى شريرة، بإعتبار ان الأرواح الطيبة تساعد الأقرباء: تبعث التوفيق وتقي من الشقاء، بينما تبدو الشريرة سبباً لكل الكوارث والأمراض، ووفقاً لبحث ف. غ. بوغوراز، الجوكوتكي، فأن الجوكوجيين[٣]، على سبيل المثال، إعتقدوا بأن الأرواح الشريرة تختطف نفوس النائمين من الناس، تسلقها وتلتهمها. وتتوارى النساء الجوكوتكيات في أوقات الولادة بمكان خفي لكيلا تستطيع الأرواح الشريرة إختطاف الطفل.

مع ظهور الزراعة وتربية الماشية إحتل مكاناً رئيسياً في العبادة تقديس أرواح الطبيعة: أرواح الأرض والشمس والرعد والبرق والنبات.. الخ. ظلوا يعزون لها بشكل خاص أهمية عظيمة في حياة الناس الاقتصادية والاجتماعية. وبقصد إستعطاف هذه الأرواح قدم الناس القرابين لها. كانت التضحية في البداية الطعام والحيوانات وأشياء متنوعة وأخيراً البشر. قاسى كثير من شعوب العالم من تقديم القرابين البشرية. يجلب آنكي بيرو القديمة، في تقديمهم قرباناً لأرواح

[١] قاموس المورد، ص٨٤٣ ويضيف: والشامانية: دين بدائي من أديان شمال أوربا وآسيا يتميز بوجود عالم محجوب هو عالم الآلهة والشياطين وأرواح السلف وبان هذا العالم لا يستجيب الا للشامان ويوجد هذا الدين لدى بعض هنود أمريكا الحمر، ص٨٤٣–.

[٢] لكن شاعراً عربياً قديماً قال عن التمائم: وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمة لا تنتفع

[٣] شعب عائش في جوكوتسكي دائرة كوتسكي القومية في منطقة كامتشكا، القاموس الروسي – الروسي، ص٨٧٤– المترجم.

طبيعتهم، كلَّ عامٍ بعض ا لأولاد والفتيات البالغين حقاً وتواري قبائل الهند القديمة، بقصد زيادة خصوبة الأرض، أجساد أطفال قتلى فيها.

الدين وظهور عدم المساواة الطبقية:

بدأ الدين مع ظهور عدم مساواة الملكية في المجتمع البدائي، يخدم مصالح أشراف القبيلة، مكتنفاً قادة وكهنة وقورين، بوصفهم حائزين على قوة خارقة. فلدى البولينيزيين، الباقين في مرحلة انحلال نظام المشاعية البدائية، تعتبر شخصية القائد بالذات مقدسة، وإرتبطت بها مجموعة محرمات: يحرم النظر إلى القائد والتقرب إليه والدخول بالحديث معه فلذلك أصبح لمس القائد محرماً على الآخرين وكذلك الانتقال في ممتلكاته. يجب أن ينجز الآخرون جميع الأعمال نيابةَ عن القائد. فلا يستطيع هو بالذات حتى تناول طعامه، يطعمه المقربون. يبدو نظام المحرمات الدينية [التابو Taboo] لدى البولينيزيين واحداً من مصادر تركيز الزعماء. ساعد الدين وجهاء القبائل العشائرية على الأحتفاظ بطاعة أعضاء الجماعية البسطاء. أُستخدمت الروابط [Unions] الدينية لإسناد القادة. وجدت [الروابط] لدى قبائل المحيط [الهادي] والأفريقية والأمريكية. في عضوية الرابطة يتناول رجال راشدون طقوس التكريس [Dedication– الرسامة، الوسامة] القديمة. وبوسا طتهم في قيادة نشاط الرابطة يشرف الزعيم على حياة الجماعية، متدخلاً بجميع أعمالها. في مالينيزيا، على سبيل المثال، يرهب بالحرف الواحد هذا التنظيم جميع السكان.

جرت سويةً مع تغييرات بنية المجتمع الإجتماعية تبدلات في وضعية رعاة العبادة الدينية. وفي المراحل ا لمبكرة لتطور المجتمع لعب السحرة والكهنة والخ دوراً خطيراً ومع ذلك لم يستلموا عن نشاطهم أية مكافآت ولم تكن لهم أية امتيازات ووضعيتهم غير كافية لتمييزهم عن وضعية بقية أعضاء المجتمع. وساهموا سويةً مع الجميع في الإنتاج وحصلوا على حصة متساوية عند التوزيع. وا لمجتمع على هذا المستوى من التطور لم يمتلك بعد محاصيل فائضة بالقدر الذي يستطيع به ايجاد الطبقة الممتازة. ومع ظهور الملكية غير المتساوية في المجتمع شكل السحرة والكهنة سوية مع القادة زعامة العشائر القبلية واستحوذوا على زمام السلطة على الأقرباء هكذا مع نشوء عدم المساواة الاجتماعية، مع ظهور الاستغلال، أصبح الدين أسلحة إسترقاقٍ واضطهاد الجماهير الشعبية بأيدي التكتلات المسيطرة ومؤخراً الطبقات.

نشوء الإيمان بالإله:

الأصل في الدين كان غياب إنقسام الأرواح إلى عليا وسفلى وهذا يفسر بأنه لم يكن في المجتمع عدم مساواة الملكية والتكون الطبقي بعد. إذ كان الناس في علاقات خالية من السيادة والخضوع وتدريجياً، مع تطورات الزراعة وتربية الماشية مع ظهور تقسيمً، العملً الإجتماعي والملكية الخاصة، إبتدأت عملية [Process] انحلال نظام المشاعية البدائية. إنفصل أشراف العوائل

القبلية والعشائرية، حاصرة بأيديها ثروات جسيمة والسيادة. ظهرت العبودية، التي أصبحت أحد مصادر إثراء المشيخة العشائرية القبلية. ظهر إستغلال الإنسان للإنسان واضعاً بداية المجتمع الطبقي.

جرت في المجتمع تغييرات إنعكست في الدين فأصبحت الأرواح في تصورات الإنسان تنقسم إلى سفلى وعليا. وصارت أرواح تلك الظواهر الطبيعية، التي لعبت دوراً مهماً في إقتصاد الناس، تعتبر أكثر جبروتاً. ونال كلُّ روحٍ إسماً وعبادة خاصة وتحولت الأرواح إلى آلهة وظهر الشرك Polytheisme [آلهة متعددة]. كانت ديانة الأغريق القديمة مثالاً تقليدياً للشرك. محتوياً بانتيون الآلهة [Pantheon هيكل مكرس لجميع الآلهة] جميعها: زيوس، أعلى الآلهة، الإلهة هيرا – حامية الزواج وبوسيدون – إله البحر، ايد – إله مملكة تحت الأرض، أثينا – الهة الحكمة وفن الحرب، أفروديت – آلهة الحب والجمال، ابولون – إله الشمس وغيرها. حياة الآلهة كما تصورها اليونانيون قليلة الإختلاف عن حياة الناس: تشرب الآلهة وتأكل وتتزوج ولها أطفال وكانت لها كل النقائص الأرضية: كانت تغار وتحسد وتتشاجر.

ظهور وحدوية الآلهة:

مع ظهور الدولة والشكل الملكي للحكم ظهرت في الدين عقيدة الإله الواحد الكلي القدرة [Omnipotence]. كانت هيئته قد أنشأت عن نموذج الملكية الأرضية. كتب ف. أنكلز: (.. كل مجموع صفات الآلهة المتعددة الطبيعية والاجتماعية إنتقلت إلى كلي القدرة الإله الواحد الجبار، الذي يظهر بدوره، إنعكاساً لإنسان تجريدي فحسب)

يعكس الدين، كالمعتاد، تلك التغييرات التي حصلت في حياة الناس الأرضية فحسب، لأن تطوره يتحدد بظروف حياة المجتمع المادية.

إحتفظ التوحيد [Monotheism الإيمان بإله واحد] بذاته ببقايا الشرك السالف، فالمسيحية، على سبيل المثال، تتصور إلهها بثلاثة أوجه: الإله – الأب، الإله – الإبن والإله – الروح، إضافة إلى ذلك فإنها تعترف بوجود أولياء متعددين، الذين شغلوا أماكن آلهة ثانوية.

الدين البدائي والأديان المعاصرة:

تختلف جوهرياً التصورات الدينية والعبادة الدينية للمجتمع البدائي عن تصورات وعبادة الأديان المعاصرة ومع ذلك لم يلاحظ بان استنتج عن ان الدين البدائي والأديان المعاصرة منعزلة بعضها عن بعض بهوة لا تجتاز. على العكس فقد تسربت إلى الأديان المعاصرة كثير من ملامح التصورات الدينية البدائية المميزة. تقريباً تحتفظ جميع الأديان المعاصرة ببقايا الطوطمية وعبادة الحيوانات. اليهودية، على سبيل المثال، حرمت على المؤمنين استعمال الخنزير في الطعام. ظهر هذا التحريم لدى اليهود القدماء المعتبرين الخنزير حيوانهم الطوطمي. وتبدو بقايا الطوطمية في المسيحية بصور القديسين على هيئة حيوانات: رسم المسيح المقدس في الايقونات

الأرثدوكسية برأس كلبي، انتشرت بشكل واسع صور الروح المقدسة بهيئة طائر. ويرتقى السر [القربان] المقدس في المسيحية إلى طقوس الارتباط بالطوطم القديمة. ويحتفظ أيضاً في الأديان المعاصرة بكثير من بقايا عقائد الأرواحية البدائية. ويبدو أحدها، الداخل في جميع أديان العالم، التصور عن النفس ووجودها في الآخرة. الحقيقة أنه يتبدل بشدة مع تيارات الزمن: فأصبحت النفس تصور بتجريد أكثر كأحد الأسس الروحانية، ولكن مع عوالم الآخرة في ظروف المجتمع الطبقي غدت مرتبطة بعقيدة التعويض [الجزاء = Requital]. عانى الإعتقاد بالأرواح كذلك من التغيير: ففي المسيحية، على سبيل المثال، أصبحت الملائكة تلعب دور الأرواح المحسنة، ودور الشريرة – الروح الخبيثة (الشياطين، الساحرات وغيرها).

أصبحت السحرية أساس عبادة جميع الأديان المعاصرة – المسيحية والإسلام والبوذية. وعلى هذا النحو في المسيحية صلاة المطر والمحاصيل المباركة وطقوس غيرها، المسح بالزيت [لأغراض دينية للتكريس Unction , Tonoimting – المترجم] وسر البيعة [لدى المؤمنين إحدى أسرار الكنيسة الأرثدوكسية – تزييت أجساد مريضة أو متوفاة – المترجم] [١]، والحج إلى المصادر [المراكز] المقدسة... الخ وما هذه إلا أعمالاً سحرية تمتد جذورها إلى سحر المناخ والإخصاب والسحر العلاجي، وظهرت على أساس السحر العلاجي تصورات عن أرواح وآلهة بارئة الأمراض. وتظهر بقايا الإعتقاد السحري بالتمائم في المسيحية بحمل الحجاب (التمائم) والصلبان على الجسد [مباشرة]. الخ .[٢]

الخاتمة

ثَبَّت الدين، الذي هو حصيلة ضعف الإنسان البدائي في نضاله مع الطبيعة المحيطة به، ثبَّت مع لحظة ظهوره هذا الضعف وعرقل تقدم البشرية. ولم يكن نتيجة التطور الإقتصادي الواطئ للمجتمع البدائي فحسب وإنما لدرجة معلومة سبباً له. أهدر الإنسان في الطقوس الدينية كثيراً من القوى والأوقات والأعمال التي ربَّما أمكن استخدامها لتطور القوى المنتجة المطرد وللإلمام بالطبيعة.

ومع ذلك لا يجوز الإتفاق مع مزاعم العلماء البرجوازيين بأن تفكير الإنسان البدائي كان صوفياً كلياً وديناً. ولكن حياته مشبكة بالطقوس الدينية والمراسيم الاحتفالية. إحتل الدين في الحقيقة في المجتمع البدائي مكاناً أكثر تواضعاً. لقد إعتمد الإنسان البدائي بدرجة أكبر وأهم على تجربته الإيجابية وخبراته العملية من اعتماده على الدين. وفي هذه كانت الضمانة لتقدم المجتمع البشري المطرد.

[١] ن. م.، ص٧٢٩ –.

[٢]. كارل ماركس. و ف. أنكلز، عن الدين، دار النشر الحكومية، ١٩٥٥، ص ١١٤.

المصادر

١. دليل الملحد ، تأليف جماعة من العلماء السوفيت ، ط١٢، المنقحة والمضافة، دار النشر الحكومية، المطبوعات السياسية ، موسكو ، ١٩٦١م

٢. كارل ماركس. و ف. أنكلز، عن الدين، دار النشر الحكومية، ١٩٥٥، ص ١١٤.

٣. غارهام . ف. پليخانوف، مقالات عن الدين،القاهرة، ١٩٢٥،

٤. ف.إي. لينين، الدفاتر الفلسفية، دار النشر الحكومية، بيروت، ١٩٤٧

٥. أس. أي. أجيگوف، موسكو، ١٩٦١، ص١٣١، قاموس المورد إنكليزي – عربي، منير البعلبكي، بيروت، ١٩٧٠.

٦. قاموس ويبستر الإنكليزي، شيكاغو، ١٩٤٦، ص٢٢٩ – المترجم.